قصص عربية

فتح بيت المقدس

قصَصٌ عَربيّة

فتح بَيْت المقدِسْ

تأليف

محمد أبو الفضل ابراهيم　　عبد المجيد قطامش

يطلب من :

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

سعيد جوده السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
٣٢ شارع كامل صدقي "الفجالة"

فتح بيت المقدس

١

اختارَ أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطَّابِ أبا عُبيْدَةَ بنَ الجرَّاحِ لفَتْحِ بلادِ الشام ، فخرجَ على رأْسِ جيشٍ كبير ، ودخلَ الشَّام ، وفتحَ كثيرا من بُلْدَانِه ، حتَّى وصلَ إلى دِمَشْقَ ففتَحها ، وأَقامَ بها مدةً حتَّى يَستريحَ الجيش .

ثم جمعَ القوَّادَ وأُولِى الرأْىِ من أَصحابِه ، واستشَارهم : هل يسيرُ بعدَ ذلك إلى قَيْسارِيَّةَ(١) أو إلى بيتِ المَقْدِس ؟

فقالَ له مُعاذُ بنُ جَبَل ، وهو من كبارِ الصَّحابةِ وذوى الرَّأْىِ فى المسلمين :

— أَرى أَن تكتبَ بذلك إلى أَميرِ المؤمنين ، وحيثُ أَمركَ وجب أَن تُطيعَ أَمرَه .

فارتاحَ أَبو عُبَيْدَةَ لهذا الرأْىِ ، وقال :

— أَصبتَ الرأْىَ يا مُعاذ .

---

(١) قيسارية : بلدة كانت على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

ثم كتبَ إلى أُميرِ المؤمنين بالمدينة ، فلما وصل كِتابُه إليه جمع المسلمين ، وقرأَه عليهم ، واستشارهم فى الأُمر .

فتكلَّم علىُّ بنُ أَبى طالب ، وكان مشهورا ببُعْدِ النَّظرِ ، وأَصالةِ الرأْى ، وكان عمرُ يَسْتشيرُه دائمًا فى كلِّ ما يعرِضُ له من مُشْكلاتٍ ومسائل ، فقال :

— يا أَميرَ المؤمنين ، مُرْ صاحبَك أَبا عُبيدةَ أَن يسيرَ بالجيوش إلى بيتِ المَقْدِسِ ، فإذافتحه اتَّجه إلى قَيسَارِيَّةَ ؛ فإنَّ بيتَ المقدسِ إذا فُتحَ سقطتْ بعدَه جميعُ البلادِ إن شاءَ الله .

فأُعجبَ عمرُ برأْيه ، وقال :

— صدقتَ يا أَبا الحَسَن .

ثم دعا عمرُ بدَوَاةٍ وقِرْطاس ، وكتبَ رسالةً إلى أَبى عُبَيْدَةَ يأْمُره فيها أَن يتوجَّهَ إلى بيتِ المَقْدِس .

فلما وصلَ الكتابُ إلى أَبى عُبَيْدَةَ ، وقَرأَه على الناس فرِحُوا بالمَسيرِ إلى بيتِ المقْدِس . وما هِىَ إلَّا ساعاتٌ حتى كانوا فى طريقِهم إليه ، يتقدَّمهُم أبو عُبيْدَةَ ، وهو يحملُ رايةَ الإسلام ، وعن يمينه خالدُ بْنُ الوَليد ، وعن يسارِه عبدُ الرَّحمن بْنُ أَبى بكر ، والجيشُ منْ خَلفِه يَضِجُّ بالتَّكْبيرِ والتَّهْليل .

وزحفَ الجيشُ، حتى اقتربَ من أسوارِ بيتِ المَقْدِس، ولما أحسَّ الرومُ بقدومِه لجئُوا إلى كنيسةٍ من كنائسِهم، واجتمعُوا فيها، وخرجَ عليهم البَطْرِيقُ وسألهم:

— ما هذه الضَّجَّةُ التى أَسمعُ؟ وما الذى جمعَكم هنا الآن؟

فقالوا له:

— يا أبَانَا، لقد قدِمَ أميرُ المؤمنينَ على رأسِ جَيْشٍ كبيرٍ.

فلما سمِع البَطْرِيقُ ذلك انْخطَف لَوْنُه، وتغيَّر وَجهُه، وظهرَ عليه الخوفُ والفَزعُ، وقال:

— إنَّا قرأْنَا فى الكُتُبِ المقدَّسةِ أنَّ الذى يفتحُ هذه البلادَ هو الرجلُ الأحمر، صاحبُ نبيِّهم مُحمَّد، فإن كان هو الذى قدِم علينَا فلن نَسْتطيع له قتالا. ولا بدَّ أن أَنظُرَ إليهِ الآن، وأرى أوصافَه، فإن وجدتُه هو أجبْتُه إلى ما يُريد، وتركْنا له البلدَةَ يدخلُها، وإن كان غيره فلا تخافُوا.

ثم وثبَ البَطْرِيقُ قائمًا، وخرجَ من الكَنيسة، وسار وحولَه القُسُسُ والرُّهبانُ، يرفعون الصُّلْبانَ على رأْسِه، والرومُ من خلفِه يسيرون فى خوفٍ شديد. وصعِدَ البطريقُ والقُسسُ والرُّهبانُ فوقَ سور المدينة، فلما رآهم المسلمون اقتربُوا من السُّور، يتقدَّمُهم أبو عُبيدةَ، فأمرَ البَطريقُ أحدَ الرُّهبانِ أن يُنادِى، فلما نادَى سكتَ المسلمون يستمِعون إلى ندائِه، فإذا هو يقولُ لهم:

— يا معاشرَ المسلمينِ، كُفُّوا عن القتالِ حتى نسألَكُمْ.

ثم قال باللُّغةِ العربيَّة:

— إننا نعرفُ أوصافَ الرجلِ الذى يفتحُ بلدتَنا، فإن كانت هذه الصفاتُ فى أميرِكم سلَّمنا لكم، ولم نُقاتِلْكم، وإن لم تكنْ فيه فلن نُسلِّمَ لكم أبدا.

فلما بلغَ ذلك أبا عُبيدَةَ خرج إلى الرُّوم إلى أن وقفَ أمامَهم، فنظر إليه البَطريقُ، ودقَّقَ النظرَ، والتفتَ إلى الروم، وقال لهم:

— ليسَ هو الرجلَ، فأبْشِروا ودافِعُوا عن دينِكم وأرضِكم.

ونشَبَ القِتالُ بين الفريقَيْن، واستمرَّ أربعةَ أشهُر، والمسلمون يُحاصرونَ بيتَ المَقدسِ من كلِّ جهة، وكان ذلك فى فصل الشتاء، والبردُ قارسٌ، والأمطار غزيرةٌ، والثُّلوجُ تُغطى قِممَ الجبال، ولكنَّ المسلمين لم يُبالوا بكلِّ هذا، صبروا وصمدوا أمامَ العدوّ.

أما الرُّومُ فإنهم لما اشتَدَّ عليهم الحصارُ، وضاقتْ بهم الحياةُ ذهبوا إلى البَطْرِيقِ، ووقفوا بين يدَيْه فى ذلَّةٍ وإعياء، وقالوا له:

— يا أبانا، لقد اشتدَّ بنا الأمر، وضاقتْ بنا الدُّنيا، ونريدُ منك

أن تَرْحَمنا ، وتُطلَّ على المسلمين ، فتسألُهم : ما الذى يُريدون ؟ فإن كانوا يريدون الاستِمْرارَ فى القتال فتَحْنا الأبوابَ ، وخرجنا إليهم ، فإمَّا أن نُقتَلَ عن آخرِنا ، وإمَّا أن نردَّهم عن بلدِنا .

فارتاحت نَفْسُ البَطْريقِ لهذا الكلام ، وصعِد السُّورَ ، وحولَه القِسِّيسُونَ والرُّهبان ، ونادى منهم رجلٌ باللغةِ العربيَّة :

ـــ يا مَعْشرَ المسلمين ، إنَّ البَطريقَ رئيسَ دينِ النَّصرانيَّة قد جاءَ يُخاطبكم ، فلْيقتربْ مِنَّا أميرُكم .

فسار نحوهم أبو عُبيدةَ كأنَّه الأسدُ ، وحولَه جماعةٌ من أصحابِه ، وتَرجُمانٌ يُترجِمُ له ما يتكلَّمُ به البَطريق .

فلما وقفَ المسلمون أمامَ الروم قال الترجُمانُ لهم :

ـــ هذا هو أميرُ العربِ ، وقائدُ الجيشِ ، فماذا تُريدونَ منه ؟

فقال البَطريقُ :

ـــ إنَّكم لو بَقِيتم هنا عشرِين عامًا فلن تستطيعوا فَتْحَ بلدنا ، وقد قُلْنا لكم : إنَّ الذى سيفتحُهُ رجلٌ نعرفُ أوصافَه ، وليستْ هذه الصِّفاتُ فى واحدٍ منكم .

فقالَ أبو عُبيدةَ :

ـــ وما صفاتُ مَنْ يفتحُ بلدكم ؟

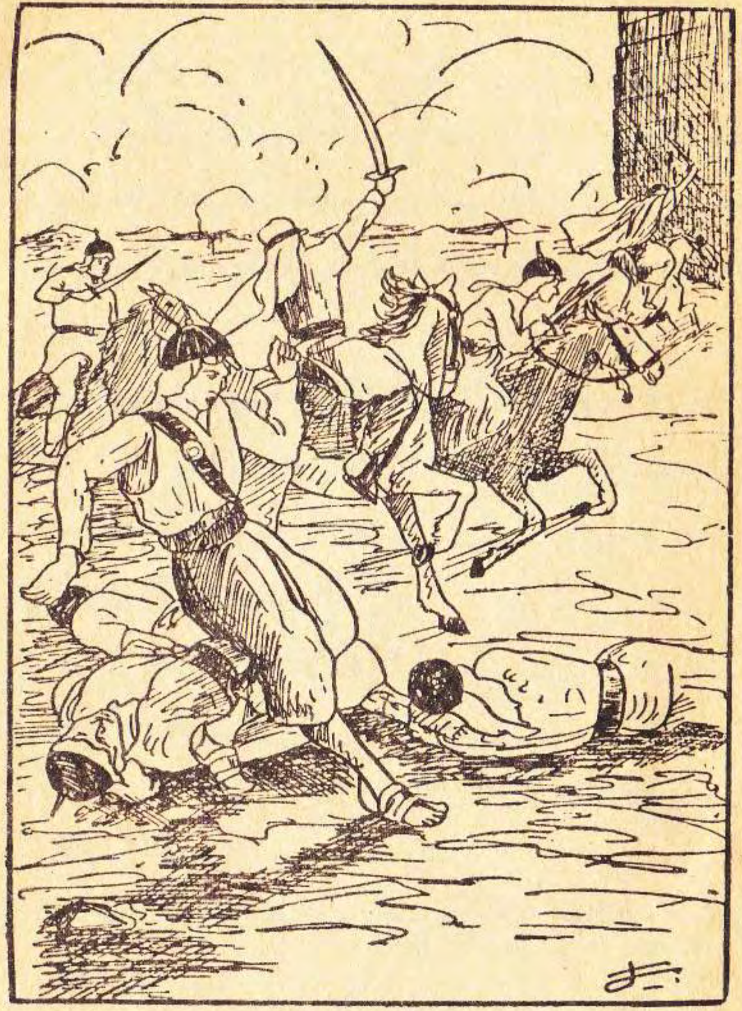

نشب القتال بين الفريقين ، واستمر أربعة أشهر ، والمسلمون يحاصرون بيت المقدس من كل جهة .

فأَجابه البَطريقُ :

ــ إنَّا قرأْنَا فى الكُتبِ المقدَّسةِ أَنَّ الذى يفتحُ هذا البَلَدَ صاحبٌ لمحمَّدٍ اسمُه : عمرُ بنُ الخطَّاب ، ويلُقَّب بالفاروقِ ، وأَنَّه رجلٌ شديدٌ فى الحقِّ ، لا تأْخذُه فيه لومةُ لائِم ، ولسنا نرى صِفتَه فى واحدٍ منكم .

فلما سمِع أَبو عُبيدةَ هذا الكلامَ من البَطريقِ هزَّ رأْسَه ، وتهلَّل وجهُه بالبِشر ، وقال لأَصحابِه :

ــ فتحْنا البلدَ ورَبِّ الكَعْبةِ .

ثم أَقبل على البَطريقِ وقال له :

ــ هل تعرفُ الرجلَ إنْ رأَيتَه ؟

قال البَطريقُ :

ــ نعم . وكيف لا أَعرفُه وصفتُه عندَنا !

قال أَبو عُبيدةَ :

ــ هو واللهِ خَليفتُنا ، وصاحبُ نبيِّنا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ .

فقال البَطريقُ :

ــ فإذا كان الأَمرُ كما ذكرتَ فكفَّ عن القتالِ ، واحْقِن الدِّماء ، وابعثْ إلى عُمَر يأْتى ، فإذا رأَيناه ، وتأَكَّدْنا من صفاتِه

فتحْنا له البَلد ، وأَعطيناه الجِزْية(١) .

٢

وأَمر أَبو عُبيدةَ المسلمين بالكفِّ عن القتالِ ، ثم كتبَ إلى أَميرِ المؤمنين يشرحُ له الأَمر ، ويطلبُ إليه أَن يَقدُمَ عليه . فلما وصلَ الكتابُ إلى عُمرَ جَمع المسلمين ، وقرأَهُ عليهم ، وقال لهم :

ــ ما تَرَوْن يرحمكم اللهُ فيما كتبَه إلينا أَبو عُبيدة ؟

فقالَ له عثمانُ بنُ عَفَّانَ رضىَ اللهُ عنه :

ــ يا أَميرَ المؤمنين . أَرى أَنَّ الرومَ قد خارتْ عزائمُهم ، وضعفتْ مُقاومتُهم ، وأَنَّهم على وشْكِ أَن يَسْتسلِموا ؛ ورأْيى أَن تَبْقى هنا ، حتى يعلموا أَنَّك لا تقيمُ لهم وَزْنًا ، فتزداد عزائمُهم انهيارًا ، ولا يثبُتُوا على القتال .

فقالَ عمُر :

ــ جزاك اللهُ خيرًا يا عُثمان .

ثم التفتَ إلى مَنْ حولَه ، وسأَلهم :

---

(١) الجزية : قدر من المال الذى كان يدفعه غير المسلمين نظير إقامتهم فى بلاد المسلمين .

ــ هل لأحدٍ منكم رأىٌ غيرُ هذا الرأى ؟

فقال علىُّ بنُ أبى طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجههَ :

ــ نعم . عِنْدى غيرُ هذا الرَّأى .

فقالَ له عمرُ :

ــ ما رأيكَ يا أبا الحسنِ ؟

قال علىٌّ :

ــ إنَّ الرومَ ما طلبُوا أن تذهبَ إليهم إلَّا بعدَ أن أصابَهم جُهْدٌ شَديد ، مِنْ طولِ الحِصار ، وشِدَّةِ البَرْدِ ، فإن أنتَ سِرْتَ إليهم وهم على هذه الحالِ فتح اللهُ على يديْك بَيْتَ المَقْدِس . وإنِّى أخافُ إذا لم تذهبْ إليهمْ أن يطلبُوا من الإمْبراطورِ مَدَدًا ، فيمدُّهُم بجيشٍ كبير ، يَقْوَى به الرومُ ، وقد يصيبُ المسلمين منه أذًى شديد . فتهلَّلَ وجهُ عُمَر ، وارتاحت نفسهُ لرأىِ على ، وقالَ لمن حَوْلَه :

ــ إنَّ لكلٍّ من عُثمانَ وعلىٍّ وِجْهةَ نظرٍ فيما رأى ، وكلٌّ منهما قد أحسن فيما رأى ، جزاهما اللهُ خيْرًا ، ولستُ آخذُ إلا بِمَشُورةِ علىٍّ ، فما عرفناه إلا محمودَ المَشورةِ ، صائبَ الرَّأىِ :

* * *

وأعلن عمرُ فى النَّاسِ أنْ يستعدُّوا للسَّيْرِ معه إلى بيتِ المَقدِس ، واستَخْلَفَ على المدينةِ علىَّ بْنَ أبى طَالب . وغادرَ المسلمونَ المدينَة ، وبينَهم عمرُ يركبُ بَعيرًا أحمر ، عليْه غِرارَتان ، فى إحداهُما سَوِيقٌ ، وفى الأُخرَى تمرٌ ، وأمامه قرْبةٌ مملوءَةٌ بالماءِ ، وخلفه جَفْنَةٌ لِلطَّعام .

وسارَ بِالنَّاسِ حتَّى وصلَ إلى بيتِ المقدِس ، فلمَّا الْتقَى بأبِى عُبيدةَ تَصافحَا وتَعانقَا ، وأحاطَ المسلمونَ بعُمرَ فى فرْحةٍ غامِرةٍ وشَوْقٍ عظيم .

وجلسَ عمرُ بينَ المسلمين ، وأجْلَسَ إلى جانبِه أبَا عُبيْدَةَ ، وأخذَا يَتَحدَّثانِ عن الموقف بينَ المسلمين والرُّوم ، ثم جاءَ وقت الظُّهرِ فأذَّنَ بِلالٌ للصَّلاةِ ، فلما قالَ : « اللهُ أكبرُ » خَشعتْ قلوبُ النَّاس ، واقْشَعرَّتْ أبْدانُهم ، ولمَّا قالَ : « أشْهدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ ، وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ » بَكى الناسُ بُكاءً شديدًا عِندَ ذِكْرِ رسولِ الله ، وارْتفعَتْ أصواتُهم بالبُكاءِ ، حتَّى كادَ بلالٌ أنْ يقطع الأذانَ من شِدَّةِ البكاء ، وارتفاع الأصْوات . وقامَ عمرُ فصلَّى بالنَّاسِ ، وخطبَ فيهم ، ثم أمرَهم بالرُّكوب .

* * *

وكانَ عمرُ يَرْتَدِى ثَوْبًا خَشِنًا من الصُّوفِ ، به أَربعَ عَشْرَةَ رُقْعَة ، بعضُها من جِلد ، فلمَّا همَّ بركوبِ بعيرِه قالَ له المسلمون :

ـــ يا أَميرَ المؤمنين ، لو ركبتَ فرسًا بدلَ هذا البَعيرِ ، ولبسْتَ ثوبًا غيرَ هذا الثَّوب المرقَّع ، كانَ ذلك أَدْعَى لِهَيْبَتِك فى قلوب الأَعداء .

فابتسم عمرُ ، وأَبَى عليهم ذلك ، فجعَلوا يسأَلونَه مرَّةً بعد مرَّة ، ويطلُبون إليه أَن يغيِّر بعيرَه وثوبه ، ويُلحُّونَ فى الطَّلَبِ ، حتَّى أَجابهم إلى ما طَلَبُوا ، ونزعَ عنه الثَّوبَ المرقَّع ، ولبِسَ بدَلَه ثيابًا بيضًا رَقيقة ، وطَرَحَ على كَتِفَيْهِ منْديلًا من الكَتَّانِ قدَّمه له أَبو عُبيدةَ ، وركبَ فرسًا أَحضرهُ له .

فلما ركبَ الفرسَ أَخذَ يتبَخْتَرُ فى مِشْيَتِه ، فكرِه عمرُ ذلك ، ونزلَ عنه وهو يقولُ لمن حولَه من المسلِمين :

ـــ أَقِيلونى عَثْرتِى أَقالَ اللهُ عَثَراتِكم يومَ القيامة ، لقد كاد أَميرُكم يهلِكُ مِمَّا دخلَه من الكِبْرِ .

ثم خلعَ الثِّيَابَ البيضَ ، وارتدَى ثوبَه المرقَّع ، وركب بعيرَه ، فكبَّرَ المسلمون وعلا صَوتُهم بالتكبير .

فلما سمع البَطْرِيقُ تكبيرَ المسلمين قالَ للرُّوم :

ـــ انْظُرُوا ما شأْنُ العَربِ ؟

فأَطلَّ من الرومِ رجلٌ ، ونادَى :

ـــ يا معاشرَ العربِ . ماذا وراءَكم ؟

فأَجابوه :

ـــ إنَّ أَميرَ المؤمنين قد قدِم .

فنزلَ الرجلُ وأَخبر البَطريقَ ، فأَطْرقَ برأْسِه حزينًا لا يتكلَّم .

وجاءَ الغدُ ، فصلَّى عمرُ بالمسلمين صلاةَ الفَجْر ، ثم قال لأَبى عُبيدةَ :

ـــ تَقدَّمْ إلى الرُّوم ، وأَخْبِرْهم مَرةً ثانيةً أَنِّى قد أَتَيْتُ .

فتقدَّمَ أَبُو عُبيدةَ إليهم ، وصاحَ فيهم :

ـــ لقد قدِمَ أَميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطَّاب ؛ فماذَا أَنتمْ صانِعون فيما قلتُم ؟

فذهبَ جماعةٌ منهم إلى البَطريقِ فى الكَنيسةِ ، وأَخبرُوه بقدومِ عُمَرَ ، فخرجَ وحولَه الرُّهبانُ والقُسُسُ ، وسارَ حتَّى صعِدَ السورَ ، وأَشرفَ على أَبى عُبيدة ، وقالَ له :

ـــ ما هذا أَيُّها الشَّيْخ ؟

فأَجابَه :

ـــ هَذا أَميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطَّاب .

قال البَطريقُ :

ــ قُلْ له : يَدْنُو مِنِّى ، وأَفْرِدُوه مِنْ بينكم حتَّى أَرَاه ، فإنِّى أَعرِفُه بصِفاتِه .

فرجع أَبو عُبيدَة إلى عمرَ ، وأَخبرَه بما قال البَطريقُ ، فهمَّ عُمر بالذَّهابِ إليه ، ولكنَّ المسلمين منعُوه من ذلك ، وقالُوا له :

ــ إنَّنا نخشَى عليك أَن تَذْهَب إليه منفرِدًا .

فقال عمرُ :

ــ ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ، هُوَ مَوْلَانَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ثمَّ لبِسَ ثوبَه المرقَّع ، وركبَ بعيرَه ، وسار إلى البَطريق ، وأَبو عُبيدةَ أَمامَه إلى أَن وقفَ قريبًا من السُّور ، ثم قالَ أَبو عُبيدةَ للبَطريق :

ــ هَذا هو أَميرُ المؤمنين عُمرُ بنُ الخطَّاب .

فمدَّ البَطريقُ عُنقَه ، ونظرَ إلى عُمرَ ، ثمَّ زعقَ وقال :

ــ هذه واللهِ صِفتُهُ التى فى كتُبِنا .

ثمَّ الْتَفتَ إلى الرُّوم ، وقالَ لهم :

ــ يا أَهلَ بيتِ المَقْدِسِ . انزِلُوا إليه ، وخُذُوا منه الأَمانَ ، فهذا واللهِ صاحبُ مُحَمَّدِ بنِ عبدِ الله .

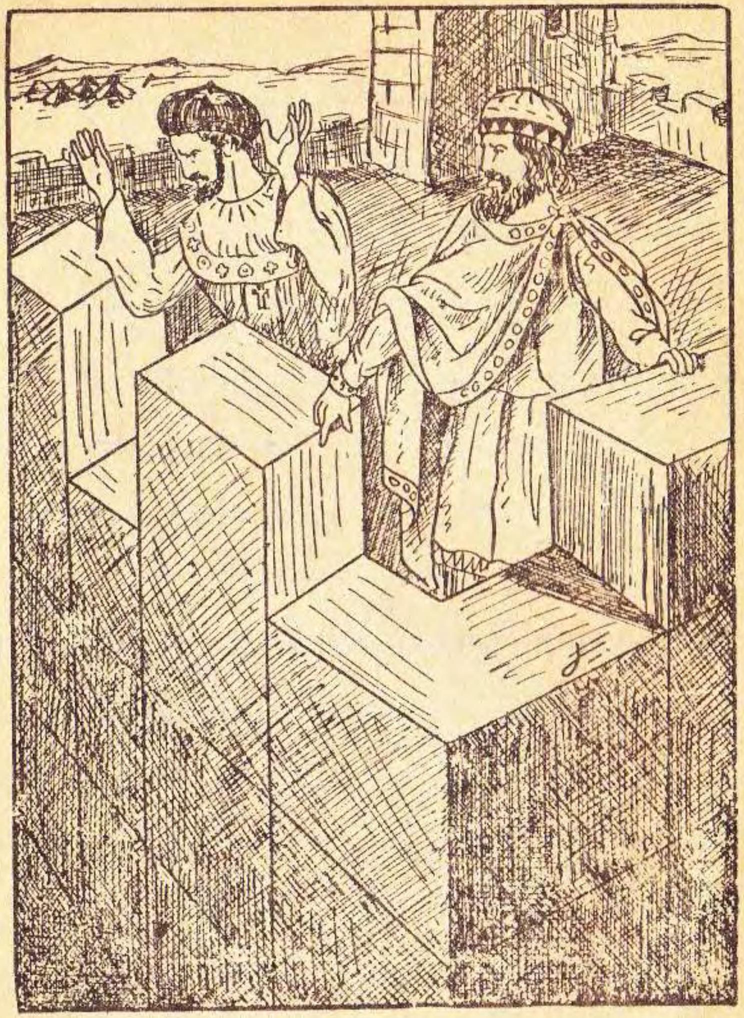

مد البطريق عنقه ، ونظر إلى عمر ، ثم زعق وقال :
ــ هذه والله صفته التى فى كتبنا .

ولم يكدِ الرُّومُ يسمعونَ هذِهِ الكلمةَ من فَمِ البَطريق حتَّى نزلُوا مُسْرِعِين وفتحُوا الأَبواب ، فقد كانتْ نفوسُهم ضاقتْ من شِدَّةِ الحصارِ وطُولِه ، وخرجُوا إلى عُمرَ فى ذِلةٍ واسْتِسْلام يسأَلونَه الأَمان ، فلمَّا رآهم عمرُ على هذه الحالِ تواضعَ لله سُبحَانَه ، وخرَّ ساجدًا على رَحْلِ بعيرِه ثمَّ رفعَ رأْسَه إلى الرُّوم وقالَ لهم :

— ارْجِعُوا إلى بَلدِكُم ، ولكُمُ الأَمَانُ والعَهْدُ .

فرجَعُوا إلى بَلدِهم ، وتركُوا أَبْوابَهُ مفْتوحةً أَمامَ المسلمِين .

ولمَّا كانَ الغدُ دخلَ عمرُ بَيْتَ المَقْدِسِ فاتحًا مُنتَصِرًا ، وأَقام به عَشْرة أيام ، ثم عادَ إلى المدينةِ بعدَ أَنْ عاهدَ الرُّومَ ، وفرض عليْهم الجِزْيَة ، وتركَهم آمنينَ فى بلدهم .

حيلة معاوية

١

غَزا المسلمونَ بلادَ الرُّومِ فى عهدِ مُعاويةَ بنِ أَبى سُفْيان ، فأَسر الرُّومُ جماعةً مِنْهُم ، وذهبُوا بِهم إلى مَلكِهم ، فلمَّا وقفَ الأَسْرى بين يدىْ ملكِ الرُّومِ تكلمَ أَحدُهم بكلامٍ اسْتاءَ منه المَلِكُ ، فدنَا منه أَحدُ البَطارقةِ ، ولَطمه على وَجْهِهِ لطْمَةً آلمتْهُ ، فصاحَ العربِىُّ وكان اسمُه صَفْوانَ ، قائلًا :

— وا إسلاماه ! أَينَ أَنتَ يا مُعاويةُ ؟ لقدْ ضَيَّعتَ ثُغورَنا ، وحكَّمتُ العدُوَّ فى بلادِنا ، وأَبَحْتَ دِماءَنا وأَعراضَنَا !

ووصلَ الخبرُ إلى مُعاويةَ وهو بِدِمَشْقَ عاصمةِ الخِلافَة ، فحزن لذلكَ حُزْنًا شديدًا ، حتَّى امتنعَ عن الطَّعامِ والشَّرابِ ، وخلَا بنَفْسِهِ يُفكِّرُ كيف يَنْتَقِمُ لهذا العَرَبِىِّ .

وأَطلقَ ملكُ الرُّومِ سَراحَ الأَسْرَى ، فعادُوا إلى دِمَشْقَ ، وعاد معهُم صَفْوانُ ، فلمَّا علِمَ مُعاوِيةُ بعوْدتِه استَدْعاه إليه ، وأَكْرمَه ، ولاطفَه بالحديثِ ، ثمَّ قالَ له :

ـــ يا صفوانُ . إنَّا لم نُهملْكَ ، ولَمْ نُضَيِّعْكَ ، ولا أَبحْنا دمَك وعِرْضَك ، وسترَى كيفَ أَنتقمُ لك ،.

ثم استَدْعَى مُعاويةُ إليه رجلًا من المسلمِين ، يُقالُ له يَعْقوب ، كان بحَّارًا يَعرِفُ اللغَةَ الرُّومِيَّةَ ، وخلَا به ، وقصَّ علَيه قِصَّةَ الْبَطْرِيقِ معَ صَفْوانَ ، وطلبَ إليه أَن يَحتالَ بكلِّ الطُّرُقِ للقبضِ على هَذَا البَطريق ، وإحضارِه إليه ليَنْتَقِمَ منه لِصَفْوانَ .

ففكرَ يعقُوبُ قليلًا ، وقالَ لمُعاويةَ :

ـــ يا أَميرَ المؤمنين . لقد وَجَدْتُ الحِيلَةَ .

فسأَله معاويةُ :

ـــ وما حِيلتُكَ يا يعقُوبُ ؟

فأَجابَ :

ـــ أَعطِنى مالًا أَشترِى به تُحفًا وطِيبًا وجَواهرَ ، وهدايَا ثَمينةً ، ثمَّ أَصدِرْ أَمرَك بأَن يُجهَّزَ لى مَركَبٌ أَحملُ فيها هَذه الأَشياء .

فأَعطَاه مُعاويةُ ما طلبَ مِنْ مالٍ ، وأَمرَ فأُعدَّ له مَركَبٌ سَريعٌ ، لا يُدرَكُ لِسرعَتِهِ . وذهَبَ يَعْقوبُ فاشترى ما أَرادَ من الهدايا الثَّمينةِ ، والتُّحَفِ النادرة ، وركبَ المركبَ ، وسار به فى البحرِ الأَبيضِ مُتَّجهًا إلى بلادِ الرُّومِ ، فلمَّا وصلَ إلى جزيرةِ قُبْرُصَ اتَّصلَ برئيسِها ، وأَفهمَه أَنَّه يُحضرُ معَه هَدايا للْمَلِك ، ويُريدُ أَن يَدْخلَ القُسْطَنْطِينِيَّةَ ليقدِّمَها له ، فبعثَ رئيسُ الجزيرِة إلى المللكِ بذَلِكَ ، فأَذِنَ له فى الدُّخول ، وواصلَ يعقوبُ سَيْرَه فى البَحْر ، ودخلَ الخليجَ الَّذِى تقعُ عليه القُسْطَنْطِينِيَّةُ ، فلما صارَ أَمامَها استأْذَن فى الدُّخولِ على الملكِ فأَذِنَ له ، فلمَّا مثَل بَين يَديْه قدَّمَ له الهدايا ، وقدَّمَ لبَطارِقَتِه كذلكَ هَدايَا مِنَ التُّحَفِ والطِّيبِ والجواهرِ ، ولكنهَّ لم يُعْطِ للبطرِيق الذى لطمَ صَفْوانَ شَيْئًا .

وعادَ يعقوبُ إلى دِمَشْقَ بَعدَ أَنْ أَوصَاه المَلِكُ والبطارقةُ بشراءِ حَوائجَ وأَمتِعةٍ ذَكرُوها له ، ولمَّا وصلَ إلى دِمَشْقَ اتَّصَلَ بمُعاويةَ سرًّا ، وقَصَّ عَليه ما جرَى له عِندَ ملكِ الرُّوم ، فأَعطَاه مُعاويةُ المالَ ، ليَشْترِىَ به ما طلبَ الملكُ والبَطارقةُ ، وأَوصَاه قائلًا له :

ـــ إنَّ البَطريقَ الذى لَطمَ أَخاكَ العربِىَّ صَفْوانَ سَوْفَ يُعاتِبُك على عدمِ إعطائِه شَيئًا من الهَدايا ، فإذا عاتبَكَ فَاعْتذِرْ له ، وتلطَّفْ معه فى الحديثِ وأَعْطِه بعضَ تِلْكَ الهَدايا ، وانْظُرْ ماذا يطلبُ مِنْك من دِمَشْقَ وعِدْه بإحضارِه .

وعاد يعقوبُ بالهدايا والتُّحفِ إلى القُسطَنْطِينيَّة ، ففرح الملكُ بعَوْدتِه وزادتْ مَنْزلتُه عنْدَه ، ومكثَ هناك أَيَّامًا ، كان يتردَّدُ

خِلاَلَهَا على قَصْرِ الملِك .

وذاتَ يَوْمٍ ، ويعقوبُ يدخلُ قَصْرَ الملك اعْترضه البَطريقُ ، وقال له :

ـــ ما ذَنْبِى إليكَ ؟ ولماذَا حرمْتَنى من الهَدايا أوَّلَ مرَّةٍ ، فى حينَ أهديْتَ لجميع البطارقةِ ؟!

فقالَ له يعقوبُ :

ـــ الآنَ فَقَطْ علمتُ أنَّنى كنتُ مُخْطِئًا فى حقِّك ، ولَسْتُ أُحِبُّ بعدَ اليَوْمِ أن يعتَنى بأمْرِى لَدَى الملكِ سواكَ ، فاطلُبْ مِنِّى جميعَ حوائجِك ، وسوف أقضِيهَا لكَ إنْ شاءَ اللهُ .

٢

وظلَّ يعقوبُ على هذه الحالِ شهورًا ، يَتردَّدُ بينَ دِمَشْقَ والقُسْطَنْطِينيَّة ، وبين مُعاوية وملِكِ الرُّوم ، وذَاتَ يومٍ قال البَطريقُ له وهو يُغادِرُ القُسْطَنْطِينيَّة :

ـــ أُريدُ أن تشترى لى من دِمَشْقَ بِسَاطًا ثمينًا بمَخادِّه ووَسائِده ، يكون منْقُوشًا بجميع الألوانِ ، مِنْ أَحمرَ وأزرقَ وأَصفرَ وأَخضرَ ، مَهْما بلغَ ثمنُه .

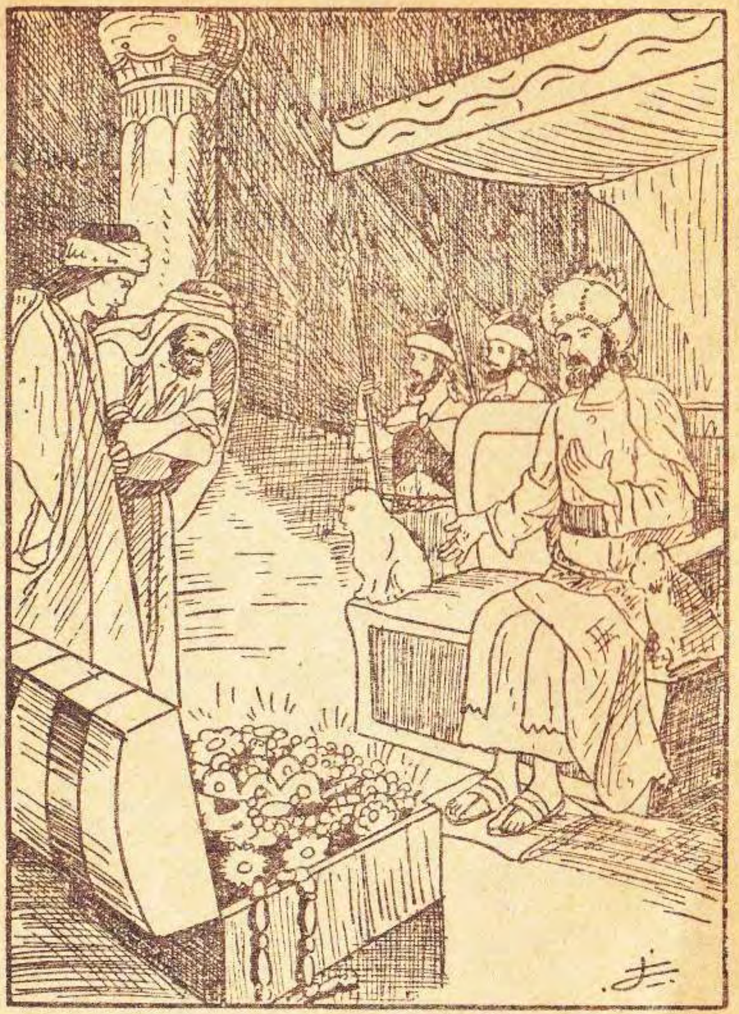

لما مثل يعقوب بين يدى الملك قدم له الهدايا ، وقدم لبطارقته كذلك هدايا من التحف والطيب والجواهر

فلما عادَ يعقوبُ إلى دِمَشْقَ ، وأَخبرَ معاويةَ بما طلبَ البَطريق ، أَعطاهُ المالَ الذى اشْترى به البِساطَ ، ثمَّ أَخذَه يعقوبُ واتِّجهَ إلى القُسْطَنْطِينِيَّة ومعه بعضُ الرِّجال .

وكانَ من عادةِ يعقوبَ إذا ذهبَ إلى القُسْطَنْطِينِيَّة أَن يرْبِطَ مَرْكبه قريبَةً من ضَيْعَةِ(١) البَطريق التى تقعُ على أَوَّلِ الخليج ، وكانَ للبَطريقِ بهذهِ الضَّيْعة قصرٌ عظيمٌ ، حولَه حَدِيقةٌ فَسِيحةٌ ، كان يَقْضى فيه مُعظمَ أَوقاتِه .

وقبلَ أَنْ يصلَ يعقوبُ بمركَبِه إلى قصر البَطريقِ فَرَشَ البِساطَ فى صَحن المركبِ ، ووضَعَ عليه الوَسائدَ والمخَداتِ ، ووضَع كُرْسِيًّا كانَ قد أَحضرهُ معِه على طرفِ البِساط ، وأَمر مَنْ معَه من الرِّجالِ أَن يجلِسُوا فى مكانٍ تحت الكُرْسىِّ ، بحيثُ لا يراهُم أَحَدٌ ، فجلسُوا وبأَيْدِيهم المجَادِيفُ ، ينتظرونَ ما يأْمرهُم به يَعقُوب .

ثم حاذَى المركبُ قصرَ البَطريقِ ، وكان وَقْتَئِذٍ جالسًا فى الشُّرْفةِ ومَعهُ زَوْجَتُه ، يتحدَّثانِ ، ويتمتَّعانِ بجمالِ المياهِ فى الخليج ، ويتفرَّجانِ على ما يعبُرُه من مَراكبَ وزَوارِقَ .

فلمَّا أَبصرَ البَطريقُ مركبَ يَعْقُوبَ غَنَّى طرَبًا ، وصاحَ فرَحًا

وسُرورًا ، فدنَا يعقوبُ بمركَبِه من القَصْرِ وطوَى الشِّراعَ ، وأَطلَّ البَطريقُ من الشُّرْفةِ فرأَى البِساطَ الجميل ، وما فيه من أَلْوانٍ زاهيةٍ كأَلوانِ الزُّهور ، فلم يتمالَكْ نَفْسَه من الفرح ، ولم يُطِقْ أَنْ يبْقَى فى مكانه ، وأَسرعَ فنزلَ إلى المركَبِ وجلسَ على الكُرْسىِّ ، وما هِىَ إلَّا لحظَاتٌ قصارٌ حتَّى ضربَ يعقوبُ برِجْلِه عَلَى سَطحِ المركَبِ ضربةً ، كانَ قد اتَّفقَ عليْها مع الرِّجالِ ، فأَسرَعُوا خارجين من مكانِهم وبأَيديهم المجادِيفُ ، وجلسُوا على حافتَى المركَب يُجدِّفونَ بها فى سُرعةٍ وشِدَّة ، ولم تَمْضِ إلَّا لحظاتٌ أُخرى حتَّى كان المركَبُ قد بعُدَ عن القصرِ . فلما توسَّطَ البحر شدَّ الرجالُ وَثاقَ البَطريقِ ، وسارُوا به عَبْرَ البحرِ الأَبيضِ إلى دِمشْقَ .

ولمَّا وقفَ البَطريقُ بين يَدَىْ مُعاوية فَرِحَ معاوية بنجاح حيلته ، وشكرَ يعقوبَ على مهارتِه فى تنفيذِها ، ثم قال له :

ــ علىَّ بصَفْوانَ الآنَ .

فأُتىَ به إليه ، وكان مجلسُه فى ذلك الوقتِ غاصًّا بالأَعْيان ورجالِ الدَّولةِ ، فتوجَّه إلى صفوان ، وقالَ له :

ــ هَذا هُوَ البَطريقُ الذى لطمَك على وَجْهِك ، فخُذْ بحقِّكَ مِنْه ، ولا تتَجاوَزْ ما فعلَ بَك .

---

(١) الضيعة : مساحة كبيرة من الأرض المزروعة .

فلطمَ صَفْوانُ البَطريقَ على وَجهِه عِدَّةَ لَطَماتٍ، ووكَزَه فى حلْقه كما فعلَ به، ثم استَدارَ فأَكبَّ على يدِ مُعاويةَ يُقَبِّلُها، وأَخذَ يمدحُه ويَصِفه بكلِّ صفاتِ الكمالِ، ويدعُو له بكلِّ خير.

أمَّا معاويةُ فقد أَحسنَ إلى البَطريقِ، وأَعطاه البِساط وهدايَا أُخْرَى ثمينةً، وقال له:

— ارْجِع إلى ملكِك، وقُلْ له: تركتُ مِلكَ العرَب، يقيمُ الحدودَ على بساطِك، ويأْخذُ لرعيَّته حقوقَها فى دار ممْلكتِك.

ثم قالَ ليعقُوب:

— سِرْ مع البَطريقِ حتَّى تأْتِيَ به الخليج، ثم اتْركْه هُناكَ.

فخرجَ يعقوبُ ومعَه البَطريقُ مُكبَّلًا بالحديدِ، وسارَ به فى البحر حتَّى أَوصلَه إلى أَوَّلِ الخليجِ، ثم عاد راجعًا إلى دِمَشْقَ. وحُمِلَ البَطريقُ من ساعتِه إلى ملكِ الرُّوم، ومعه الهدايَا التى بَعثَ بها مُعاويةُ، وقصَّ عليه ما فعلَ به معاويةُ، فتعجَّبَ الملكُ من المُعاملةِ الكريمةِ التى عاملَ بها معاويةُ البَطرِيقَ، وأُعجِبَ بالهدايَا التى بَعثَ بها إليه، وقال:

— هَذا مَلِكٌ من أَعظمِ مُلوكِ الدُّنْيا. إنَّه يمتازُ بالدَّهاءِ والمَكْر والحيلة، ولهذا اختارتْه العربُ مَلِكًا عليها، واللهِ لو أَرادَ مُعاويةُ أنْ يأْخُذَنى بحيلَتِه لتَمَّ له ذلك.

قصص عربية

(١) أيام النعمان
(٢) الملك المخدوع
(٣) فارس الشهباء
(٤) جابر العثرات
(٥) الملك الهارب
(٦) الاعتراف بالجميل
(٧) بين المأمون وعمه
(٨) من نوادر الطفيليين
(٩) عروة وعفراء
(١٠) حيلة بارعة
(١١) قاتل الأسد
(١٢) عند ملك الصين
(١٣) زعيم الصعاليك
(١٤) جزاء الاحسان
(١٥) حلة النعمان
(١٦) قاضى الكوفة
(١٧) فتح بيت المقدس

دار مصر للطباعة

الثمن ٢٥ قرشا